الخوف من المستقبل

لفضيلة الشيخ :

د. عبد العزيز الريس

١٤٤٢هـ

الفهرس

مقدمة المؤلف ١

مقدمات ٢

المقدمة الأولى: الحرص على ما ينفع المسلم في دينه ودنياه ٢

المقدمة الثانية: فعل الأسباب مطلب شرعي ٢

المقدمة الثالثة: استحضار أن الله خلقنا لعبادته في كل وقت ٣

المقدمة الرابعة: مما يُميز المسلم أنه رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًّا ٤

المقدمة الخامسة: حسن الظن بالله ٦

الموقف من تغيُّر الأحوال بنقص الأموال ٨

لا يحصل شيء إلا بقضاء الله وقدره ٨

الفرق بين الصبر والرضى ٩

النظر للمصائب بعين العقل ١٠

من رحمة الله بعباده: أن قسَّمهم ما بين غني وفقير ١٠

موقف المسلم تجاه المال ١١

المال لا يُذم لذاته ١١

كان كثير من الأنبياء أغنياء ١٢

فتنة المال للقلب ١٣

الشريعة تدعو للتقلل من الدنيا ١٤

أيهما أفضل السعي لتحصيل الكفاية؟ أو السعي لتحصيل ما يزيد لإنفاقه في سبيل الله؟ ١٤

من أسباب عدم التعلق بالدنيا والمال التعلق المذموم ١٥

الأمر الأول: التوحيد ١٥

الأمر الثاني: الدعاء ١٥
الأمر الثالث: مجالسة أهل الخير ١٥
الأمر الرابع: أخذ العبرة مما مضى ١٦
الأمر الخامس: تذكر حقيقة لذة الدنيا ١٧
الأمر السادس: الزهد عما في أيدي الناس ١٧
الأمر السابع: كثرة ذكر الله وقراءة القرآن ١٨
الأمر الثامن: تذكر الموت ١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد:

فقد اطلعت على تفريغ لكلمة بعنوان: (الخوف من المستقبل) قام بتفريغه بعض الإخوة ووضعوا له فهرسًا، أسأل الله أن يتقبل هذا العمل وأن ينفع به عباده.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

د. عبد العزيز بن ريس الريس

المشرف على موقع الإسلام العتيق

http://islamancient.com

٢٧ / ٦ / ١٤٤٢هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

فإن المراد من هذا الموضوع أن كثيرًا من المسلمين يُرددون الخوف من المستقبل، وأصابهم من ذلك الغم والوهم، حتى إن الأب يُربّي ولده على الاستعداد للمستقبل، ويُعظِّم شأن المستقبل والخوف منه في قلب ولده حتى يأخذ الأمر بالجد، فأصبحت ثقافة عامة عند المسلمين، ودخل عليهم الشيطان من هذا الباب، فزهدهم في طاعة الله، وعلَّقهم بالأموال وجمعها، وكل ذلك لأجل تأمين المستقبل ...إلى غير ذلك من المعاني، وينبغي أن يكون المسلم وسطًا في هذا الباب، بلا إفراط ولا تفريط.

وفي استهلال هذا الموضوع أُقدِّم بمقدمات:

المقدمة الأولى: ينبغي للإنسان أن يحرص على ما ينفعه في أمر دينه ودنياه، فإن العاقل بمقتضى عقله يجتهد في كل ما هو نافع له روى الإمام مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجزنَّ، فإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلْتُ كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل».

فقوله: «احرص على ما ينفعك» (ما) هنا موصولة، فهي عامة فيما ينفع من أمور الدنيا والدين، فينبغي على المسلم أن يجتهد في تحصيل ما ينفعه في دينه ودنياه، وألا يكون ضعيف دينٍ ورقيق تديُّنٍ فيُهمل دينه، وكذلك لا يكون بطَّالًا كسولًا فيترك ما ينفعه في دنياه.

المقدمة الثانية: فعل الأسباب مطلبٌ شرعيٌّ، ولو تأملت قول النبي ﷺ: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله» فمقتضى هذا أن يُسعى في فعل الأسباب، وقد دلَّ الكتاب والسنة وإجماع أهل السنة على فعل الأسباب، فإن أهل السنة وسط بين طائفتين ضلَّت في هذا الباب:

الطائفة الأولى: الجبرية، وقد جعلت العبد مجبورًا لا إرادة له.

الطائفة الثانية المقابلة لهم: القدرية، وقد جعلت العبد مستقلًا في فعل الأسباب، يخلق فعل نفسه.

وأهل السنة يجمعون بين الاجتهاد في فعل الأسباب وأنَّ للعبد قدرةً، مع التعلُّق بالله سبحانه، وأن الأمر كله بيده سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

لذا ينبغي أن نجمع بين الاعتماد على الله وفعل الأسباب، ومما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم أن الاعتماد على الأسباب نقص في التوحيد، وأن ترك الأسباب قدحٌ في العقول، وقد جمعَ النبي ﷺ بينهما، فقد دخل المعركة والغزوة وهو لابسٌ للمغفر، وكان كثير الدعاء بالنصر، فجمع بين الأمرين.

ومما يُخطئ فيه كثيرون أنهم إما يغلون في فعل الأسباب أو يُفرّطون في فعلها، وما أكثر الذين فرّطوا في فعل الأسباب تحجُّجًا بأن هذا هو مقتضى التعبُّد وغير ذلك، وهذا خطأ، لذا قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

المقدمة الثالثة: ينبغي أن نستحضر في كل وقت أننا خُلقنا لعبادة الله، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] والعبادة مرتبة عظيمة ودرجة عالية، لذا وصف الله نبيَّه محمدًا ﷺ بالعبودية في أعظم المقامات وهو مقام الإسراء والمعراج، قال سبحانه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾ [الإسراء: ١] فينبغي أن نجعل كل أفعالنا عبودية لله، فإن ما نفعله أقسام:

قسمٌ عبادةٌ في ذاته، كصلاة الفريضة أو النافلة وغير ذلك من العبادات.

وقسمٌ مباح، وهذا المباح ينبغي أن نجعله وسيلة معينة على طاعة الله، كما روى البخاري عن معاذ -رضي الله عنه- أنه قال: "... أنام أول الليل، فأقوم وقد قضيت جزئي من النوم، فأقرأ ما كتب الله لي، فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي".

وروى البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها، حتى ما تجعل في فم امرأتك».

وقال زبيد اليامي -رحمه الله تعالى-: "يا بني انوِ في كل شيء تريده الخير، حتى في خروجك إلى الكناسة في حاجة"، وقال الإمام أحمد: "يا بني انو الخير فإنك لا تزال بخير ما نويت الخير"

وقد تكلم شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (الفرقان) وذكر أن المُقرَّبين أرفع درجة من أصحاب اليمين، وأن المقربين تعبَّدوا بأحوالهم كلها، فحالهم ما بين عبادة يُتعبَّد بها كالصيام والصلاة سواء كان واجبًا أو مستحبًّا، وما بين مباحات يستعينون بها على طاعة الله، ويلي هؤلاء أصحاب اليمين، وهم نقصوا عن الأولين بأنهم لم يستعملوا المباحات في طاعة الله.

فلنستحضر أننا خُلقنا لعبادة الله، وغدًا بين يدي الله موقوفون، وعن أعمالنا مسؤولون، وأعمالنا سببٌ من أسباب نجاتنا كما قال سبحانه: ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٤] فلنحاول أن نجعل كل ما نفعله عبادة نتقرَّب بها إلى الله، فالله الله أن نجتهد في ذلك غاية الاجتهاد.

المقدمة الرابعة: إن مما يميز المسلم أنه قد آمن بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمدٍ ﷺ رسولًا، وأنه قد سلَّم الأمور كلها لله، ومن ذلك الإيمان بقضاء الله وقدره، وأن الأمور قد قُدرت وقضيت.

روى الإمام مسلم في حديث جبريل الطويل من حديث ابن عمر عن عمر -رضي الله عنهما- وفيه أن جبريل -عليه السلام- سألَ النبي ﷺ وقال: «فأخبرني عن الإيمان؟» فقال: «الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره».

فيجب علينا أن نؤمن بقضاء الله وقدره وأن نعلم أن الأمور قد قُضيت، وكتب الله كل شيء، كما روى الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة».

والإيمان بالقضاء والقدر والتسليم لله والرضا به هو من أعظم ما يُدخل الأُنس على قلب المؤمن، فكلما سلّم لقضاء الله وقدره أكثر كان ذا أنس وفرح وانشراح صدر أعظم، لذلك الإيمان به بلسم الحياة.

وفي كتاب (الحوادث والبدع) لأبي بكر الطرطوشي قال: "وقد قيل: إنه ليس في كتاب الله تعالى أسلى من هذه الآية" وهي قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣]

فإذا علمنا أن الأمور قد قُدرت وانتهت، وأنها من عليم حكيم، رحمن رحيم، أرحم بنا من أمهاتنا وآبائنا فلنرض بالله ربًّا وبقدره وقضائه حكمة ورحمة روى البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أنه قال: قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبي فإذا امرأة من السبي، تبتغي، إذا وجدت صبيا في السبي، أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا رسول الله ﷺ: «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟» قلنا: لا، والله وهي تقدر على ألا تطرحه، فقال رسول الله ﷺ: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها».

الله أكبر! تأمل رحمة الله وكيف أنه أرحم بنا من أم فقدت صبيها في غزو واشتدّت بها الظنون بأن صبيها قد مات، ثم إذا بها فجأة تجد هذا الصبي، فترفعه وتُلقمه ثديها، ثم مع

هذا كله الله سبحانه أرحم بنا من هذه المرأة، ومما يدل على عظم رحمة الله أنه جعل أوائل سورة الفاتحة في الرحمة فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١-٢] بل جعل ابتداء كل سورة بقول: بسم الله الرحمن الرحيم، إلى غير ذلك فإذا كان ربنا كذلك، فلم الجزع والخوف مما قضاه الله وقدّره؟ لابد أن تكون نفوسنا راضية مطمئنة منشرحة، قد سلّمت أمرها كله لله، قال سبحانه: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

فلنتق الله إخوة الإيمان، ولنُقبل على ربنا الرحمن الرحيم، ولنرض بقضائه وقدره، ولتنشرح صدورنا رضًا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًّا، فإذا كنا كذلك لم نخش ولم نخف المستقبل؛ لأن المستقبل من حكيم عليم رحمن رحيم -سبحانه وتعالى- فإذا كنا أهل سعادة فلم تهجم علينا الغموم ولا الهموم ولم نجعل للشيطان علينا مدخلًا وتأكدوا أن الشيطان يسعى كل السعي لتخويف بني آدم وإشغاله عن عبادة الله، ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

فاتقوا الله واستشعروا رحمة الرحمن الرحيم، العليم الحكيم، واستشعروا فضله علينا، وإن مما يزيد ذلك: أن تُقلب البصر فيما مضى من أحوالك، كم نزلت بك من مصيبة ففرَّجها الله، وكم ظننت بحالٍ سوءًا فقلبه الله من نقمة إلى نعمة، ومن ضيق إلى سعة، فلنتق الله ونُعظّم التوحيد في قلوبنا ولا نكن كأهل الدنيا من الكافرين أو من بعض المسلمين الذين تعلقوا بهذه الدنيا، فكانوا أهل جزعٍ وهمٍ وحزنٍ وأحاط بهم الخوف من المستقبل، فأضعفهم.

المقدمة الخامسة: يجب أن نُحسن الظن بربنا الرحمن الرحيم الحكيم العليم، ذي المن والفضل، وألا نُسيء الظن به، كما قال سبحانه: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

فالكافرون يظنون بالله ظن السوء، والمسلمون يتفاوتون في هذا، فما أكثر المسلمين الذين ظنوا بالله ظن السوء، فإذا قيل لمسلم: اتق الله واترك ما حرم الله، فإن من ترك ما حرم الله عوَّضه خيرًا منه... ترى بعض المسلمين يُسيء الظن بربه ويقول: كيف يُعوضني خيرًا من هذا؟ فيبقى على هذا المحرم، ولو أحسن الظن بربه لعوَّضه الله خيرًا منه، وهذا مثلٌ من الأمثلة الكثيرة، فكبِّر هذا المثل وصغّره في حياتك كلها، وما أكثر الذين يُسيئون الظن بربهم ويقولون: لو أطعنا الله في كذا قد يحصل لنا كذا وكذا ... أو يأتيه من يأتيه من العوام -وقد يكون بعضهم ناصحًا لكن لا يُحسن طريقة النصح- فيقول له: لو فعلت كذا - مما هو طاعة وتقوى لله- فإنه يحصل لك كذا وكذا، فيُسيئون الظن بالله سبحانه!

فيجب أن نُحسن الظن بربنا وأن نُعلق الأمور به، فلا أرحم ولا أعلم ولا أحكم منه سبحانه، فأحسن الظن بربك ولا تسئ الظن به، ومقتضى هذا: أن نجتهد في التمسك بدين الله وأن نقوم به في أنفسنا وأن ندعو الناس إليه، وألا نترك دين الله لهذه الأوهام والظنون ولسوء الظن بالله سبحانه وتعالى.

وبعد هذا، فإننا نعيش في زمن كثر تعلق الناس فيه بالدنيا، وعظم تنافسهم على المال والكمالات والمظاهر وكثر من يشتكي وينوح، فمنهم من يشتكي من قلة المال وفرض الضرائب والمكوس، ومنهم من يشتكي تجارته، ومنهم من يشتكي صحته، ومنهم من يشتكي أولاده... إلى غير ذلك، وإذا خوطب بعض الناس بأن مثل هذا يُعالج بالطرق الشرعية وغيرها، وذكرت له بعض الأمثلة من الماضين، قال: زماننا يختلف عما مضى من الأزمان.

والواقع أن زماننا كغيره، وكما قال القائل:

نعيب زماننا والعيب فينا *** وما لزماننا عيبٌ سوانا

إن من قرأ ولو قليلًا في كتب التاريخ واسترجع ما عليه الماضون من الآباء والأسلاف ومن سبقهم، وجدَ الناس هم هم، وإنما ظفَرَ بالنوال وفاز بأحسن الأحوال من اتقى الله الذي لا

إله إلا هو، وما عدا ذلك فكل الناس في كل الأزمان مع ضعف الدين يشتكون دنياهم، فمنهم من يشتكي قلة الأموال ومنهم من يشتكي ضعف الصحة، ومنهم من يشتكي عقوق الأبناء ...إلخ.

لذلك الحل في مثل هذا أن ننظر إلى هذه الأمور بالنظرة الشرعية، والذي يُشتكى منه في هذا الزمن هو موجود عند من قبلنا، بل إن كثيرًا من الناس في هذا الزمن مع ضعف حاله هو خيرٌ من كثير من الناس في الزمن الماضي مع توسط حاله، فقد انفتحت للناس من حيث الجملة أبواب وتيسّرت لهم نعم ما كان يعرفها كثير من أغنياء الزمان الماضي، بل لو قيل كل أغنياء الزمن الماضي لصح.

الموقف من تغيّر الأحوال بنقص الأموال:

ينبغي أن ننظر إلى هذا الأمر من جهات:

الجهة الأولى: أن هذا بلاء من الله سبحانه، تأمّل هذه الآية: قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ (١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٣-١٥٧].

إذن نقص الأموال صورة من صور البلاء، ونحن ما وُجدنا في هذه الدنيا إلا للابتلاء والامتحان، ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧] وكما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧] وقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢] وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا

الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢] فنحن في حال ابتلاء وامتحان.

وروى الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء».

فما ترى من تغيُّر الأحوال ووجود فقير وغني، هذا كله من الابتلاء، وواجبنا تجاه الابتلاء الصبر، لذا ذكر الله سبحانه الابتلاء بنقص الأموال وغيرها ثم ذكر الصبر وليُعلم أن الصبر واجب بإجماع أهل العلم، حكاه ابن تيمية -رحمه الله تعالى- وابن القيم، وغيرهما من أهل العلم، وقد جاءت الأوامر الكثيرة بالأمر بالصبر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

ومن فضل الصبر قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] وعلق البخاري عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أنه قال: "وجدنا خير عيشنا بالصبر". والأدلة كثيرة في وجوب الصبر وفضله.

والأفضل أن ننتقل من درجة الصبر إلى درجة أعلى وهي الرضى، فإن الرضى مستحب على أصح قولي أهل العلم، وهو عبادة عظيمة، وأعلى من الرضى الشكر، ذكر هذا ابن تيمية في كتابه (الفرقان).

فإن قلت: ما الفرق بين الصبر والرضى؟

فيقال: الفرق بينهما أمرٌ قلبي، فيجتمع الرضى والصبر في ترك التسخُّط؛ لأن التسخط محرم ومنافٍ للصبر، إلا أن الصبر يقف عند هذا الحد، أما الرضى يزداد بأن ترضى عن الله ربًّا وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا، فترضى بهذه الأقدار وتستشعر أن الله قد قدَّرها فيمتلئ قلبك رضًى بها، وليس معنى الرضى عدم تمني زوال الألم والمصيبة، بل هو أمر قلبي

فيه معنى الرضى الذي دلَّ عليه لفظه، فإن خير الراضين أنبياء الله، ومع ذلك تمنوا تغير حالهم من المصائب، قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِي الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] ذكر هذا ابن القيم -رحمه الله تعالى- في كتابه (مدارج السالكين).

وأعلى من الرضى الشكر، فلا تقف في درجة الرضى بل تزداد عبادةً لله وشكرًا له على هذه المصيبة؛ لأنه قد امتلأ قلبك يقينًا أن هذه المصيبة خير، فتشكر الله عليها.

أسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يجعلني وإياكم من الشاكرين.

الجهة الثانية: أن تنظر إلى هذه المصائب بنظر العقل بأن نعلم أنه لا فائدة من الشكاية؟ والله لو كان في الشكوى والتسخط تغيَّر الحال، لكان في الشكاية فائدة، أما والأمر على خلاف ذلك وأنه مهما اشتكيت فإن الحال هي هي، بل قد تزيدك الشكوى ضعفًا وحزنًا، فيكون للشيطان مدخل من هذا الباب، والحزن مذمومٌ شرعًا، فالشريعة لا تدعو للحزن كما بيَّن هذا ابن تيمية في (مجموع الفتاوى)، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنْ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: ١٠].

فلا فائدة من الشكوى والنوح والتسخط، والعاقل لا يركن إلى ما لا ينفع، فكيف وهذا ضارٌ في الدين والبدن بل وسبب لعدم الجد والاجتهاد في فعل الأسباب؟

الجهة الثالثة: أن من رحمة الله أن يُضيِّق على عباده وأن يُقسِّمهم ما بين غني وفقير، وتأمَّل آيات سورة الزخرف وكيف أن الله أشار إلى هذا المعنى، قال سبحانه: ﴿وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥) وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٦].

فيقول ربنا: لولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعل الكافرين أغنياء وجعل المسلمين فقراء، لكن الله لرحمته لم يجعل ذلك، فتأمل كيف أن الله يُخبرنا بحقارة الدنيا عنده وحقارة الغنى-إلا ما استُعمل في طاعته- أنه كان سيجعل الكافرين أغنياء دون المسلمين، لكنه لم يفعل ذلك حتى يبقى في الناس مسلم وكافر.

فلنستشعر أمثال هذه المعاني العظيمة، ولنُراجع أنفسنا، فإن مما يُؤلم أن ترى أقوامًا خيِّرين قد تركوا الإقبال على الآخرة، وتركوا تحصيل العلم الشرعي، وتركوا التعبُّد وصاروا يُنافسون الناس في دنياهم ويُسابقونهم، ولم يقفوا عند هذا الحد بل ضعفوا في تديُّنهم، ومنهم من قصَّر وترك الواجبات، ومنهم من قصَّر وفعل المحرمات، ومنهم من أصبح ليله ونهاره في شكاية هذه الدنيا وتغير الحال بالنسبة إليه، وكل هذا تقصير كما تقدم ذكره.

موقف المسلم تجاه المال:

قد خلق الله المال لحِكم عظيمة، والمال من جملة الدنيا، وقد أفاد شيخ الإسلام ابن تيمية كما في المجلد العشرين من (مجموع الفتاوى) وابن الجوزي في كتابه (صيد الخاطر) أن الشريعة لم تأتِ بذم الدنيا ولا بذم المال مطلقًا، وقد ذكر ابن تيمية في ثنايا كلامٍ له، قال: وإنما الذين يذمون الدنيا مطلقًا كثيرٌ من العوام، ولا يذمونها لفوات طاعة الله وإنما لفوات حظهم منها.

وبيَّن ابن الجوزي في كتابه (صيد الخاطر) أن كثيرًا من المتصوفة والجهّال ذمّوا الدنيا مطلقًا، وهذا لم تأت به الشريعة، وإنما المذموم من المال والدنيا ما صرَفَ العبد عن طاعة الله، لذا في المقابل ما استُعمل في طاعة الله فإنه محمود.

فإذن ليس الغنى محمودًا مطلقًا ولا مذمومًا مطلقًا، وكذلك الفقر، وإنما كلٌ بحسب حاله، فمن استعمل حاله في طاعة الله فهو محمود، ومن لم يكن كذلك فهو مذموم، فإن

من الأنبياء من كان ذا مال، قال ابن الجوزي: كان إبراهيم -عليه السلام- كثير المواشي، حتى امتلأت المدينة بمواشيه. وذكر أن داود -عليه السلام- كان غنيًّا. ولا يخفى قصة سليمان -عليه السلام- وهو ملك وقد أوتي من الدنيا ما أوتي.

وذكر ابن الجوزي في ثنايا كلامه أن كثيرًا من الأنبياء كذلك كانوا أغنياء، ثم ذكر في كتابه (صيد الخاطر) أن سعيد بن المسيب كان ذا تجارة ويبيع الزيت، وكان سفيان الثوري أيضًا ذا تجارة، وكذلك ابن المبارك، فقال ابن الجوزي: ليس المذموم هو تحصيل المال، وإنما المذموم ما يتعلق بتحصيل المال، إما أن يُحصله بطريق غير شرعي، أو ينشغل به عن طاعة الله، أو ألا يوجد عنده نية حسنة عند تحصيل المال، أو ألا يستعمل المال في طاعة الله.

روى البخاري عن حكيم بن حزام -رضي الله عنه- أنه سأل النبي ﷺ مالًا فأعطاه، ثم سأله فأعطاه، ثم سأله، فقال: «يا حكيم، إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، كالذي يأكل ولا يشبع ...» الحديث.

فينبغي أن نكون وسطًا في المال وفي الدنيا، لا يصح أن نذم المال والدنيا مطلقًا ولا في المقابل نتعلق بالدنيا، وإنما نتعامل مع الجميع بطاعة الله، فما استُعمل منه في طاعة الله فهو محمود، وما كان منه على خلاف ذلك فهو مذموم بحسبه.

وعلينا ألا نكسل في تحصيل المال إذا لم يُخالف شرع الله، وفي المقابل لا يصح لنا أن تتعلق قلوبنا به، وأن يصبح القلب متعلقًا بالمال، فتعلق القلب بالمال عبودية له، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالة (العبودية) لما ذكر حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- في البخاري، وفيه أن النبي ﷺ قال: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم ...» الحديث، قال ابن تيمية: وجه العبودية فيه: أن من علَّق قلبه بغير الله حبًّا وسخطًا فقد صار عبدًا له.

فلنكن وسطًا في أمر المال، لا نكون محاربين له ومزهّدين فيه مطلقًا، فإن هذا خطأ ؛لأن المال نافع للمؤمن كما ثبت عند الإمام أحمد عن عمرو بن العاص عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «نعم المال الصالح للمؤمن الصالح»، وفي المقابل ألا نتعلق بالمال لذاته، ولا نجعله مقصدًا في ذاته وفي تحصيله، وإنما نجعل لنا فيه نية، وقد ذكر ابن تيمية أن كثيرًا من الصحابة كان ذا مال، وأن جمع المال في مثل هذا ليس مذمومًا، وإنما المذموم هو أن يتعلق القلب بالمال، وهذا المال الذي كان عند الصحابة لم يدخل في قلوبهم وإنما كان في أيديهم، أما كثير ممن بعدهم فقد دخل المال في قلوبهم، لذا كثُر الحرص عندهم.

ثبت عند الترمذي من حديث كعب بن مالك أن النبي ﷺ قال: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه». فالمذموم هو الحرص، فينبغي أن نكون وسطًا لا إفراط ولا تفريط، فنسعى في جمع المال بالطرق المباحة، وأن يكون لنا نية في ذلك، وألا يدخل المال قلوبنا، ومقتضى ذلك ألا تنشغل قلوبنا به، وألا يكون هم أحدنا عند قيامه وذهابه وإيابه واستيقاظه من نومه وصباحه ومسائه، هو أن ينظر في هذا المال، وإلى الرسوم، وإلى تغيّر الأحوال ...إلخ، وإنما يسعى ويفعل ما بيده مع الموازنة بلا إفراط ولا تفريط، ولا تضييع عبادة من علم وغير ذلك، بل يحاول أن يجمع بينهما كما جمع بينهما من سبق.

ومن لطيف ما ذكر ابن الجوزي أنه قال: قد جمع بين العلم والمال طائفة. ويريد بذلك أنهم جمعوا بين تحصيل الرزق وتحصيل العلم، وليس عذرًا لطالب العلم أن يدع تحصيل الرزق لأجل العلم، بل يجمع بينهما كما فعل ذلك سعيد بن المسيب والثوري وابن المبارك.

ثم قال ابن الجوزي: أما الإمام أحمد وبشر الحافي، فكان لهما قوة في الصبر على قلة المال، ولم يكن هذا مؤذيًا لهما، فمن كان حاله كحالهما فليفعل فعلهما، ومن لم يكن حاله كحالهما فليفعل كما فعل آخرون من السلف كسعيد بن المسيب وغيره.

فكلٌّ منا ينظر لحال نفسه، ولا يُحمِّل نفسه ما لا تطيق، وفي المقابل لا يُبالغ في إعطاء نفسه من ملذات الدنيا، فنكون وسطًا بلا إفراط ولا تفريط، وذكرت هذا تأكيدًا لما تقدم ذكره من أن طائفة من إخواننا أصبحوا مقصرين في التعبُّد وتحصيل العلم، بل أصبحوا مجالسين كثيرًا من البطّالين وأهل الدنيا، فملأوا قلوبهم حبًّا للدنيا وأفسدوها بسبب الحاجة إلى المال.

وقد دعت الشريعة للتقلل من الدنيا، كما روى البخاري عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، وعن جابر بن عبد الله، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مر بالسوق، داخلا من بعض العالية، والناس كنفته، فمر بجدي أسك ميت، فتناوله فأخذ بأذنه، ثم قال: «أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟» فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال: «أتحبون أنه لكم؟» قالوا: والله لو كان حيا، كان عيبا فيه؛ لأنه أسك، فكيف وهو ميت؟ فقال: «فوالله للدنيا أهون على الله، من هذا عليكم»، ذكر هذا ابن الملقن في شرح الأربعين النووية.

وقد اختلف أهل العلم: أيهما أفضل: أن يسعى العبد إلى تحصيل الدنيا والمال لإنفاقه في سبيل الله ... إلخ، أو ألا يسعى إلى ما زاد على كفايته؟ ذهب إلى القول الأول إبراهيم النخعي، وإلى القول الثاني الحسن.

والأظهر -والله أعلم- أن الأفضل من حيث الأصل السعي والتكسب ليصل رحمه، وينفق ويتصدق، وذلك لأمرين:

الأول: أن هذا فعل جماعةٍ من الصحابة، كأبي بكر، وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف- رضي الله عنهم-.

الثاني: أن في هذا نَفْعًا متعديًا.

لكن قد ينتقل عن هذا الأصل لعارضٍ، كأن يكون في سعيه لتحصيل المال تفويت لما هو أفضل، من طلب علم أو غيره، أو من تعلُّق قلبه بالدنيا والمطلوب ألا يكون كذلك، فمثل هذا يكتفي بتحصيل ما يحتاج إليه لما تقدم ذكره من العوارض. والله أعلم.

ومما ينبغي أن يعلم أن غالب الناس إذا اشتغل بجمع المال تعلَّق قلبه به، وقلَّ من يسلم من ذلك، وقد سئل الإمام أحمد: من الزاهد؟ قال: من إذا زاد ماله أو نقص لا يبالي بذلك.

وإن من أسباب عدم التعلق بالدنيا والمال التعلق المذموم أمورًا، منها:

الأمر الأول: التوحيد، فالتوحيد سبب لكل خير في الدنيا والآخرة، ومقتضى التوحيد أن تجمع بين فعل الأسباب مع الإيمان بالقضاء والقدر، والا تُبالغ في الأسباب، وأن تجعل الآخرة همك ومقصدك، وأن تجعل الدنيا وسيلة إليها وأن تستعملها فيما يُرضي ربك الذي لا إله إلا هو سبحانه وتعالى.

الأمر الثاني: الدعاء، فهو مفتاح كل خير، أتدري ما معنى الدعاء؟ الدعاء هو سؤال من يأمر الناس بسؤاله، وهو سبحانه الذي بيده كل شيء، لذا يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦] فهو سبحانه يأمرنا بدعائه ويفرح بدعائه، فلنقبل على الله بالدعاء بأن يُغنينا غنىً لا يُشغلنا وفيه رضًى له سبحانه، وأن يُثبتنا على التوحيد والسنة والجد والاجتهاد في العلم وعبادة الله.

الأمر الثالث: مجالسة طلاب العلم وأهل الخير الذين يُذكرون بالآخرة، وعدم مجالسة أصحاب الدنيا إلا للحاجة، فإن من الملحوظ أن أكثر ما يُفسد الرجل هو مجالسته لأهل الدنيا؛ لأنه إذا جالسهم ملأوا قلبه بحب الدنيا فقالوا له: فلان حصّل كذا وأنت لم تُحصّل. أو أن وضعك خطير ولابد أن تجتهد لمجاوزة ما أنت فيه ...إلخ.

ووالله إنك ترى بعض إخواننا غافلًا عن الدنيا في لباسه ومركبه وذهابه وإيابه، ثم إذا جالس أمثال هؤلاء لفتوا انتباهه لأمثال هذه الأمور فبدأ يفكر فيها، وبدأ يُوسّع نظره ويتعلق بها فيُفسدون عليه قلبه، لذلك احرص على مجالسة الصالحين من أهل الخير الذين يُذكرونك بالآخرة ويُعينونك على الخير، قال الله لمحمد ﷺ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ

يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]
وقال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [العصر: ١-٣].

ثم أصدقكم إنه ينبغي أن ننتقي من الخيرين، فإن من أهل الخير من هو مفتون أو يُجالس المفتونين فأُصيب بمرض الفتنة وحب الدنيا وزخرفها فينقل هذا إليك، فكن حذرًا حتى من بعض الخيرين، فإذا رأيت بعض أصحابك الصالحين عندهم تتبع للدنيا فناصحهم فإن استجابوا منك فالحمد لله، وإن لم يستجيبوا فدعهم وابحث عن الخيرين الذين لا يُعلقونك بالدنيا.

وأحيانًا تكون الفتنة من أحب الناس إليك وهم الوالدان والزوجة والولد، فيذكرون هذا محبةً لك وشفقةً عليك لا عداوة لك وإنما جهلًا، فاحذر أن يضرك مقرّبوك ومحبوك بمثل هذا.

قال سبحانه ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤] وقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨] فلنكن حذرين من مجالسة أصحاب الدنيا إلا من له حق علينا وللحاجة.

الأمر الرابع: أخذ العبرة مما مضى، فإن الله أمرنا بأخذ العبرة: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١] وروى مسلم عن ابن مسعود -رضي الله عنه- أنه قال: "السعيد من وُعظ بغيره".

انظر إلى من حصّل الدنيا وأهمل العلم والعبادة والطاعة، واشتغل بتحصيل الدنيا، ما الذي استفاده؟ مات ولم يستفد شيئًا، وذهبت عليه أموره كلها، إن كانت حلالًا ولم ينوِ

فيها خيرًا فهي ليست له ولا عليه، وإن كانت حرامًا فهي عليه واستفاد من هذا المال الورثة، فأصبح هو والفقراء سواء، كلاهما وُضع في قبره، وكأن صاحب المال لم يكن ذا مال يومًا ما، فلذا خذ العبرة ممن مضى، وضرب الله لنا أمثلة بأقوام كانوا أهل خير ثم فُتنوا -عافاني الله وإياكم- فلنعتبر بمثل هؤلاء.

قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنْ الْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥] كيف أن هذا الرجل كان صاحب علم ثم فُتن بالدنيا -عافاني الله وإياكم-.

الأمر الخامس: تذكُّر حقيقة لذة الدنيا، فإذا كانت مباحة فلذتها وقتية، وبعبارة ابن الجوزي يقول: غاية ما في الدنيا من لذات: دفع الألم، فإن كانت محرمة جاء بعدها الحسرة والندامة والإثم. كما قال ابن الوردي في لاميته:

إن أهنأ عيشة قضَّيتها *** ذهبت لذاتها والإثم حلّ

لكن تأمُّل لذة العلم وانشراح الصدر به وكم فيه من الرفعة في الدنيا والآخرة، وكم فيه من الفوز برضوان الله، وكم فيه من الاشتغال بطاعة الله، وكم هو سبب لتجنيد أقوام لحماية الشريعة والذود عن حياضها التي خُلقنا من أجلها، إلى غير ذلك من المعاني، انظر فيمن مضى من العلماء قبل عشرين وأربعين سنة، مضى تجار ومضى علماء، من الذين بقيت سيرتهم؟ هم العلماء، فلا زال الناس يُرددون: قال ابن باز -رحمه الله تعالى- قال الألباني -رحمه الله- قال ابن عثيمين -رحمه الله- وهكذا. أما هؤلاء التجار فنُسي ذكرهم، وإنما يذكرهم الناس -إن ذكروهم- من باب العبرة.

الأمر السادس: الزهد عما في أيدي الناس، والاستغناء والتعفف عنه، كما أخرج الشيخان من حديث أبي سعيد، أن النبي ﷺ قال: «ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله»، وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال الرسول -صلى الله عليه وسلم-: «اللهم

إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى»: أي: غنى النفس، وذكر ﷺ أن اليد العليا خيْرٌ من السفلى، وذكر أن الصدقات أوساخ الناس... إلى غير ذلك من الأحاديث.

فقد أمرت الشريعة بمجاهدة النفس على الزهد مما في أيدي الناس؛ لئلا يلتفت إليها بقلبه، ولا بيده، ولذلك فإن من يزهد عما في أيدي الناس يُحبه الناس؛ وذلك أن النفوس مجبولةٌ على حبِّ المال، فمن سألهم المال كرهوه؛ لأنه ينافسهم فيما يحبون، ذكر هذا المعنى ابن رجب وغيره.

ومن أعظم الزهد: الزهد في الرئاسة، فالرئاسة أشمل من أن تكون في المناصب، فقد نقل الشاطبي عن بعض السلف، أنهم قالوا: إخراج الرئاسة من قلوب الصالحين أعظم من إزالة الجبال الرواسي.

وقال سفيان: يكون الرجل زاهدًا في الذهب والفضة، لكنه لا يزهد في الرئاسة.

وقد بيَّن الله أن سبب دخول النار يرجع إلى المال والرئاسة، قال سبحانه: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾، وقال سبحانه: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

الأمر السابع: كثرة ذكر الله وقراءة القرآن بتدبُّر، إن أفضل الذكر مطلقًا هو القرآن بالإجماع، ذكر هذا شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- كما في (مجموع الفتاوى)، فأفضل ذكر يُتقرب به إلى الله هو قراءة القرآن؛ لأنه كلام الله سبحانه.

ثم من أراد الأكمل فليجعل له وردًا من كتاب الله، يُداوم عليه ويُجاهد نفسه على قراءته، وليجعل له وردًا من الذكر يُداوم عليه ويُجاهد نفسه على ملازمته، فقد ثبت عند ابن سعد عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أنه كان يُسبح الله في كل يوم ثنتي عشرة ألف تسبيحة، فقد جعله وردًا يُداوم على ذلك.

ونحن إذا لم نجعل لنا وردًا فلن نستطيع إكثار الذكر، ولن نستطيع مجاهدة هذه النفس الأمارة بالسوء إلا بأن نجعل لنا وردًا نُجاهد النفس على إتمامه، وأحسن ما يكون

هو أن يُسعى للقيام بهذا الورد في أول النهار، فإن في أول النهار بركة، وهو أقل انشغالًا مما سواه، لذا إذا فرطت في وردك في أول النهار صعُب عليك بعدُ.

والمواظبة على ذكر الله من أعظم أسباب صلاح القلب، أخرج أبو نعيم في (الحلية) عن إبراهيم الخواص، أنه قال: "دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين". ومعنى خلاء البطن: أي عدم الشبع، فإن الشبع مذموم، حتى قيل لأحمد: أيجد رقة قلب من يشبع؟ قال: لا أظن.

الأمر الثامن: تذكُّر الموت، فتذكُّر الموت يُزهِّد في الدنيا، وهو سببٌ لقِصر الأمل، وفي مقابل ذلك يُحاول الشيطان أن يُطول الأمل، قال عز وجل: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنْ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١٠-١١].

فالموت خير واعظ، والله يقول: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧] وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

والله إن تذكر الموت مفيد للغاية، فتذكَّر الموت قبل نومك، وعندما تدعوك نفسك إلى المعصية، أو للتعلق بهذه الدنيا، فإن تذكره مفيد للغاية في تزهيد العبد في الدنيا وتشجيعه وتحميسه لما يبقى بعد الموت.

وقد سمى العلماء الموت بالقيامة الصغرى وقالوا: من مات فقد قامت قيامته. فتذكر الموت وما بعده يدعونا لأن نشتغل بما ينفعنا بعد الموت، ولما خُلقنا من أجله، وألا نغفل فإن الشيطان حريص على طول الأماني وطول الأمل فينشغل بالأماني عن طاعة الله.

أسأل الله أن يثبتني وإياكم على التوحيد والسنة، وأن نلقى الله راضيًا عنا، وأن يجعلنا من أهل القناعة والزهد والورع، المقبلين عليه بما يرضيه، والمستعيذين منه، وقد أعاذهم سبحانه بكرمه من كل ما يُسخطه، إنه أرحم الراحمين، وجزاكم الله خيرًا.